سورة طه

دراسة لغوية أسلوبية مقارنة

د . إبراهيم عوض

الطائف

١٤١٣هـ - ١٩٩٣ م

مقدمة

فى الصفحات التالية دراسة لسورة « طه » من عدة نواحٍ : من ناحية النحو واللغة والأسلوب ، ومن ناحية موضوعاتها وبنائها وماتنفرد به من ألفاظ وتعبيرات وتراكيب دون السور القرآنية جميعاً ، ومن ناحية توقيت نزولها وهل هى كلها مكية ؟ أم هل فيها آيات مدنية ؟ والآراء المختلفة فى ذلك ، وكذلك من ناحية المقارنة بين القصتين اللتين تحتوى عليهما (وهما قصة موسى وهاروز مع فرعون وبنى إسرائيل ، وقصة آدم وحواء مع إبليس) ونفس القصتين فى العهد القديم . ثم ختمت الدراسة بالإشارة إلى وجوه التشابه بين السورة وسورة « الأعلى » فى المفردات والعبارات والفواصل والأفكار .

وفى هذه الدراسة عدة أشياء أعتقد أنها جديدة : منها اعتماد التحليل الأسلوبى فى إثبات مكية السورة ، وهو امتداد لما صنعتُه عند تناولى لسورة « الرعد » قبلاً ، حيث طبقت هذا المنهج على نطاق أوسع ، نظراً لاختلاف علماء القرآن الحاد حول مكية تلك السورة ومدنيتها ، على عكس الأمر فى سورتنا هذه ، إذ ينحصر الخلاف حول بعض الآيات ليس غير .

ومما هو جديد فى هذه الدراسة ذلك الفصل الخاص بالمقارنة بين القرآن الكريم والعهد القديم فيما يتعلق بالقصتين اللتين تحويهما السورة التى ندرسها . وقد اتضح عن طريق التحليل التاريخى والمنطقى مواضع العبث فى العهد القديم فى هاتين القصتين ، مما يجده القارىء فى الفصل المشار إليه .

كذلك فمن الجديد إبراز المفردات والتعبيرات والتراكيب التى لاتوجد فى غير سورة « طه » . وهذا شىء لا أعرف ، فيمـا رجعـتُ إليه من دراسات ، من اهتم

به . وقد سبق أن تناولت هذا الجانب بالنسبة لسورة « الرعد » فى دراستى لها .

وأيضا أحسبُ أن الفصل الأخير فى دراستى هذه الذى ذكرتُ فيه أوجه المشابهة بين سورتى « طه » و « الأعلى » هو شىء جديد .

هذا ، ولم أقتصر فى إعداد هذه الدراسة على كتب التفسير والدراسات القرآنية العربية ولا التى كتبها مسلمون فقط ، بل رجعتُ إلى عدد من الترجمات القرآنية الانجليزية والفرنسية والألمانية التى وضعها مسلمون أو مستشرقون ، وناقشت منها كل ماله علاقة بالموضوعات التى تناولتُها فى دراستى هذه ، سواء ماكان منه فى صلب الترجمة نفسها أو فى التعليقات والتفسيرات التى وردت فى الهوامش ، وهى كثيرة وغنية ومهمة . ومن هذه الترجمات ترجمة تفسير العلامة أبى الأعلى المودودى من الأردية إلى الانجليزية ، وترجمة عبدالله يوسف على الانجليزية ، وترجمة محمد مارمادوك بكثل الانجليزية ، وترجمة محمد حميد الله الفرنسية ، وترجمة أولمان لودفيج بالألمانية ، وغيرها . وهذا شىء أظنه أيضا جديداً .

وأخيرا أرجو من ربى سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل وأن ينفع به .

إبراهيم عوض

مكية السورة

نحب أولاً أن نعرف إلى أى مرحلة من مرحلتى الدعوة المحمدية تنتمى هذه السورة : أإلى المرحلة المكية أم مرحلة المدينة ؟ إن علماء القرآن ومفسِّريه مجمعون على أن « طه » من القرآن المكىّ ، وإن كان بعضهم يستثنى منها الآيتين التاليتين أو الآخيرة منهما : « فتعالى الله الملك الحق ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يُقْضَى إليك وحيه ... إلخ » (١) ، « ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ... » (٢) . وبعضهم يستثنى الآية السابقة على الأخيرة (٣) ، وهى قوله عز وجل : « فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » (٤) .

ويؤكد مكية السورة أن قراءة عمر لآيات من هذه السُّورة كانت هى السبب فى إسلامه ، وعمر قد أسلم فى مكة بلا جدال ، وكان ذلك على ماهو معروف فى العام الخامس من عمر الدعوة (٥) .

كذلك فإن عدداً من الضوابط التى تميز الوحى المكى متحقق فى هذه السورة ، فقد قال علماء القرآن إن كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهى مكية سوى البقرة ، وكل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية سوى البقرة كذلك ، وكل سورة تفتتح بحروف التهجى فهى مكية سوى البقرة وآل عمران (مع الاختلاف حول سورة « الرعد » ، التى أثبت عن طريق التحليل الأسلوبى أنها مكية بيقين) (٦) . كما بيّنوا أن السور التى تدعو إلى التوحيد وتتضمّن إثبات البعث والجزاء وذكر القيامة وهولها والنار وعذابها والجنة ونعيمها

هى سور مكية ، وكذلك السور ذات الفواصل القصيرة والأسلوب العنيف (٧) . وهـذا كله موجود فى سورتنا التى بين أيدينا : ففيها قصة موسى عليه السلام مع فرعون وبنى إسرائيل ، وفيها قصة آدم عليه السلام وإبليس، وهى مبدوءة بحرفى الطاء والهاء ، وفيهـا كلام عن الوحدانية والبعث ونعيم الجنة وعذاب النار ، فضلا عن قصر فواصلها وحرارة أسلوبها .

وبالإضافة إلى هذا ، فإن لفظ « العرش » والاستواء عليه الموجودين فى الآية الخامسة من السورة لم يردا فى أى من نصوص الوحى المدنى ماعدا الآية الرابعة من سورة « الحديـد » (٨) . كذلـك فقـوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات ... » الموجود فى الآية ١٢٨ لاتعرفه نصوص الوحى المدنى على حين ورد فى الوحى المكى أكثر مـن عشرين مرة (٩) . ثم إن شفاعة يوم القيامة الواردة فى الآية ١٠٩ لاوجود لها فى الوحى المدنى إلا فى سورة البقرة » ، على حين أنها قد تكررت فى الوحى المكى فى نحو عشرين موضعا (١٠) . وفوق ذلك فإن الفعل الثلاثى المجرد « عجل » (الوارد فى الآيتين ٨٤ ، ١١٤) ومشتقاته قد اقتصر ورودهما على الوحى المكى ماعدا كلمة « العاجلة » فى الآية ٢٧ من سورة « الإنسان » ، التى أرجح مع ذلك أنها مكية (١١).

هذا عن مكية السورة إجمالاً ، فماذا عن الآيات التى قيل إنّها نزلت فى المدينة ؟

فأما الآية الأولى فقد جاء فى تفسيرها عند القرطبى مثلاً أن رجلاً لطم وجه امرأته فجاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم تطلب القصاص فحكم لها رسول الله به فنزل قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء ... » ، وكان

نزول آية « طه » توجيها له عليه السلام ألا يعجل بالحكم قبل أن ينزل عليه القرآن به (١٢) .

ولكن هل فى الآية مايعين على هذا التفسير ؟ إنها تقول : « ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يُقْضَى إليك وحيه » ، فالنهى كما هو بيّن إنما هو عن العجلة بالقرآن لا بالحكم . كما أنَّ قوله تعالى : « من قبل أن يُقْضَى إليك وحيه » لو فُهم على أن المراد منه أن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يحكم فى أية قضية تُرْفَع إليه إلا بعد انقضاء الوحى لما كان له من معنى إلا أنه يجب عليه أن ينتظر حتى يتمّ الانتهاء من الوحى ويكمل القران ، وعندئذ فقط يستطيع عليه السلام الفصل فى القضايا التى تُعْرَض عليه . ولايمكن أن يكون هذا هو المقصود . كذلك فإن لازم هذا الفهم أنه عليه السلام لايحلّ له الاجتهاد ، وأن القرآن لابد أن يتضمن الحكم فى كلّ القضايا على اختلاف أنواعها وظروفها ، وهذا ما لايقول به أحد ، لأن القرآن مهما جاء القول فيه مفصّلا فى حالات فإن أحكامه فى حالات أخرى هى أحكام عامة كلية ، وعلى المشرّع والقاضى أن يلجآ فى غير قليل من الأحيان إلى الاجتهاد .

أما لو فهمنا الآية على أنها توجيه للرسول عليه الصلاة والسلام بألا يسارع إلى ترديد ما يسمعه من جبريل عليه السلام أولاً بأول ، كلمة كلمة وآية آية ، حتى لا ينشغل بهذا أثناء الوحى عن تدبُّر معانى الآيات المتنزلة عليه ، وأنه ينبغى أن يطمئن إلى أن الله سبحانه قد تكفل بتحفيظه ما يوحيه إليه من القرآن فلا ينساه إن شاء الله لاستقام الكلام والفهم .

ومعروف أن للآية على هذا التفسير نظائر فى القرآن الكريم ، فقد جاء

فى سورة « القيامة » قوله تعالى : « لاتحرك به لسانك لتعجل به * إنا علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه » (١٣) ، كما نجد فى سورة « الأعلى » : سنُقرئك فلاتنسى * إلا ماشاء الله ... » (١٤) .

ولقد استنتج أبو الأعلى المودودى من هذه الآيات عينها أن « ذلك الجزء من السورة هو أحد نصوص الوحى المبكرة ، إذ إننا نعرف من السُّور المبكرة الأخرى أن الرسول الكريم كان يحاول حفظ الوحى القرآنى ، وأن الله قد نهاه عن هذا . ومن ذلك مثلاً الآيات ١٦ - ١٩ من سورة « القيامة » ... وأيضا ففى الآية السادسة من سورة « الأعلى » يُطَمْأن عليه السلام بأنه « سنقرئك فلاتنسى » . ويظهر أنه بعد أن تعلم الرسول الكريم كيف يتلقى رسالات الوحى لم يعد يحدث هذا » (١٥) .

هذا عن الآية الأولى ، وأما الثانية فالملاحظ أن هناك آية مكية بلا جدال شبيهة بها بل تطابقها فى بعض ألفاظها وردت فى سورة « الحجر » ، وهى قوله تعالى : « لا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم ولاتحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » (١٦) . وأيضا ففى سورة « عبس » ، وهى أيضا مكية ، نقرأ تحذيرا للنبى عليه السلام من أن ينشغل بالكفار الذين كانوا يشمخون بأموالهم وأحسابهم أن يجالسهم عنده فقراء المؤمنين أو يبالى بهم ، بل عليه أن يجعل اهتمامه بهؤلاء الفقراء لإخلاصهم وإقبالهم بجمع نفوسهم على الدعوة (١٧) . وبالمثل فقد كان الكفار من قومه عليه الصلاة والسّلام يتعجبون من اصطفائه هو بالذات لتلقى الوحى وعدم تنزل القرآن على رجل من مكة أو

الطائف من عظماء القوم (على حسب فهمهم للعظمة وأنها عظمة المال والكلمة المسموعة) : « وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (١٨) . وقد ردّ القرآن مسفّها أحلامهم الصغيرة بأن كلَّ مايفتخرون به وينتفخون إن هو إلا متاع الحياة الدنيا (١٩) ، وهو كما ترى تعبير يقترب جداً من قوله تعالى : « زهرة الحياة الدنيا » . كما أن الكفار كانوا يعايرون المؤمنين ويغيظونهم بقولهم : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً ومانحن بمعذّبين » (٢٠) وأيضا كانوا يتكاثرون بعرض الدنيا وينشغلون بذلك أيما انشغال : « ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر» (٣١). وقد توعدَّ القرآن هؤلاء الذين يجمعون منهم الأموال ويعدّدونها وهماً منهم أن أموالهم مخلّدتهم : « ويلٌ لكل همزة لمزة * الذى جمع مالاً وعدده * يحسب أن ماله أخلده * كلا لينبذنّ فى الحطمة * وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * ... » (٢٢) .

لكل هذا ولغيره نرى أن آية « طه » الثانية هى أيضا مكّية وأنها تدور فى نفس النطاق الذى تدور فيه الآيات المارّة وشبيهاتها من الوحى المكىّ . وهذا أقرب إلى المنطق من أن تكون قد نزلت ، كما يقول بعض المفسّرين وعلماء القرآن ، حين أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد اليهود يستسلفه فأبى أن يعطيه إلا برهن ، فحزن الرسول عليه السلام ، فأنزل الله هذه الآية (٢٣) . وبعيدٌ أن يحزن الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا الأمر التافه ، وبخاصة أن القرآن نفسه يحض المسلمين إذا ما اقترض بعضهم من بعض ولم يكن ثمَّ كاتب يسجّل الدين أن يعطى المقترض للمقرض رهناً : « وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة » (٢٤) .

وبالنسبة لقوله تعالى « فاصبر على مايقولون ... » ، فإن اللافت للانتباه هو أن هذا التعبير قد تكرر فى النصوص المكية (مبدوءاً بالفاء أو بالواو) ثلاث مرات (٢٥) ، ولم يأت فى أى نصّ مدنى . كذلك فالملاحظ أن أمر الله عز وجل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يسبّحه فى أوقات محدّدة (أدبار السجود مثلاً ، أو عند طلوع الشمس ... إلخ) يكاد أن يكون مقصورا على الوحى المكىّ : « واستغفر لذنبك وسبّح بحمد ربك بالعشى والإبكار » (٢٦) ، « وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » (٢٧) ، « ومن الليل فسبحه وادبار السجود » (٢٨) ، « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبّح بحمد ربك حين تقوم » (٢٩) ، « ومن الليل فسبّحه وأدبار السجود » (٣٠) . وهناك الآية التالية : « ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلاً طويلاً » ، وهى من سورة « الإنسان » (٣١) ، التى ذُكر فى المصحف أنها مدنية ، وإن كانت هى والآيات المحيطة بها تناسب أن تكون من القرآن المكىّ أكثر من مناسبتها أن تكون مدنية . من هنا فإننى مع الذين يقولون بأن سورة « طه » كلّها وحى مكىّ .

أيا مايكن الأمر فلا أعرف أن هناك من يجادل فى مكية الآيات التى تتناول قصة العجل الذى صنعه السامرىّ وعبده بنو إسرائيل ، وهى الآيات من ٨٥ إلى ٩٧ . ومع هذا نجد المستشرق برناد هلر كاتب مادة « Al-Samiri » فى « Encyclopaedia of Islam » يدّعى أن روايات أسباب النزول تصنّفها على أنها من القرآن الذى نزل فى المدنية ، ومرجعه فى ذلك المستشرقان نولدكه وشفالى فى كتاب « Geschishte des Qorans » (٣٢).

ولانعرف على أى أساس ارتكز ذانك المستشرقان فى كلامهما بعد أن رأينا أن روايات أسباب النزول وتتبع بعض الخصائص الأسلوبية فى السورة يتضافران على الحكم بمكّيتها

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الهوامش

١- طه /١١٤

٢ـ طه/١٣١

٣ـ انظر مثلا « روح المعانى » للألوسى / دار إحياء التراث العربى / بيروت / ١٤٧ .

٤- طه /١٣٠

٥- انظر فى مكية السورة كتب التفسير المختلفة وأسباب النزول .

٦-انظر كتابى « سورة الرعد - دراسة أسلوبية وأدبية » / مركز الشرق العربى / الطائف ٢ . ١٢

٧- انظر مثلا د . صبحى الصالح / مباحث فى علوم القرآن / دار العلم للملايين / بيروت / ط ١٦/١٩٨٥م/١٨١-١٨٣ ، ومناع القطان / مباحث فى علوم القرآن / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط ٩/١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م/٦٣-٦٤ .

٨-انظر كتابى «سورة الرعد - دراسة أسلوبية وأدبية» /٦ .

٩- السابق /٧ .

١٠- انظر « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » لمحمد فؤاد عبدالباقى / مادة « شفع » .

١١- انظر « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » / مادة « عجل » .

١٢- انظر القرطبى فى تفسير هذه الآية /ط دار الشعب /٥/٤٢٩٠ .

١٣- القيامة /١٦-١٨ .

١٤- الأعلى ٦-٧ .

15- S.A.A. Maududi , The Meaning of the Qur'an , translated into English by Muhammad Akbar , Islamic Publications Ltd., Lahore , Pakistan, 2nd ed., 1978, Vol. VII, P. 124 .

١٦-الحجر /٨٨ .

١٧ عبس /١-١٢ .

١٨ الزخرف ٣١ .

١٩-الزخرف / ٣٥ .

٢٠- سبأ / ٣٥ .

٢١- التكاثر / ١-٢ .

٢٢- الهُمَزَة / ١-٦ .

٢٣- انظر مثلا الطبرى فى تفسيره للآية / دار الفكر / بيروت /١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م/١٥/٢٣٥ ، والسيوطى / الدر المنثور فى التفسير بالمأثور / دار الفكر / بيروت / ط ١ /١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م /٥ / ٦١٢ .

٢٤- البقرة /١٨٣ .

٢٥- ص /١٧ ، ق /٣٠٩ ، المزمل /١٠ . هذا ، ورغم أن صدر « المزمل » ، الذى فيه هذه الآية من الوحى المكى ففى المصحف أن هذه الآية مدنية .

٢٦- غافر / ٥٥

٢٧- ق / ٣٩

٢٨- ق / ٤٠

٢٩- الطور / ٤٨

٣٠- الطور / ٤٩

٣١- الإنسان / ٢٦

32- First Encyclopaedia of Islam , E.J. Brill , 1987, Vol. VII , P.136 .

www.books4all.net

موضوعات السورة وبناؤها

فإذا تحولنا إلى الموضوعات التى اشتملت عليها السورة وجدنا أنها تبتدىء بمخاطبة الرسول عليه الصلاة والسلام مبينة له أن الله لم ينزل القرآن لإشقائه بل ليذكّر به فينصاع إليه من فى قلوبهم الخشية من الحقّ والاستعداد لسماع كلمته والإيمان بها ، وأن الله سبحانه هو الذى خلق السماوات والأرض وهو مالك الكون كلّه والمطلع على كل شىء فيه ، وأنه صاحب الأسماء الحسنى .

ثم ندخل فى قصة موسى عليه السلام لنجد أنفسنا أمام مشهد النار التى كلّمه عندها ربه سبحانه وتعالى وبشّره باختياره إياه رسولاً وأمَره أن يوحده ويعبده ويقيم الصلاة لذكره ، ونبّأه نبأ الساعة وحذّره أن يصرفه عنها من يكفر بها . ثم يسأله رب العزة عن عصاه التى كانت فى يمناه فيجيبه بمايعرفه عن تلك العصا ومايستعلمها فيه من توكإ عليها وهشّ بها على غنمه ، فيطلب منه سبحانه أن يلقيها فإذا بها حية تسعى ، فيخاف موسى ولكن الله يطمئنه . ثم يطلب منه أن يضم يده إلى جناحه ويخرجها فيراها موسى وقد استحالت بيضاء من غير سوءٍ . ويبين له ربه جل جلاله أن عليه أن يذهب إلى فرعون ، الذى طغى وأن يريه هاتين الآيتين لعلّه أن يرجع عن طغيانه وجبروته ، فيبتهل إليه موسى عليه السلام أن يشرح له صدره وييسّر له هذه المهمة الخطيرة ويطلق من حبسة لسانه ويؤازره بأخيه هارون ، فيستجيب الله تعالى لابتهال نبيه ، مذكرا إياه بمنته السابقة عليه عندما أنقذه من المصير الذى كان يتهدد كل طفل من بنى إسرائيل عند ولادته ، عن طريق تربيته فى حجر فرعون الذى كان هو نفسه يقتّل هؤلاء المواليد . ثم تعود الآيات إلى ماينبغى على الأخوين الكريمين

عمله مع فرعون من دعوته باللين والحسنى أن يطلق سراح بنى إسرائيل وتحذيره من العذاب الذى ينتظر المكذبين الكافرين. وتذكر الآيات الحوار الذى دار بين فرعون والنبيين الكريمين ، وكيف أراه موسى الآيات التى أرسله بها ربه إليه لكنه كذّب وأبى ، وكيف انتهى الأمر بينهما إلى الاتعاد على اللقاء يوم الزينة ، حيث جمع فرعون كبار السحرة من أرجاء البلاد ، وحيث عرض أولئك السحرة فنون سحرهم بالعصىّ والحبال التى ألقوها فخيل إلى موسى عليه السلام وكل النظّارة أنها تسعى ، مما أثار فى النفوس الخوف والرهبة ، وكيف أن الله قد أمر نبيه أن يلقى عصاه فإذا هى تلقف جميع العصىّ والحبال ، فانقلب السحرة ساجدين غير آبهين بتهديد فرعون أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف .

وهنا نجد حديثاً عن مصير المجرمين الذين ينتظرهم عذاب جهنم الخالد ، والمؤمنين الذين عملوا الصالحات وجنات عدن التى تجرى من تحتها الأنهار جزاءً لطهارة نفوسهم وزكاء أخلاقهم .

ثم تعود السورة إلى قصة موسى مع فرعون وأمْر الله إياه أن يسرى بمن آمنوا به وأن يضرب البحر بعصاه عندما يبلغونه فيكون لهم فيه طريق يابس يعبرون منه. ونشاهد غرق فرعون مع جنوده فى نفس اليمّ الذى انفلق لموسى وأتباعه .

وهنا يذكّر المولى بنى إسرائيل بنعمه عليهم من إنجائهم من بطش فرعون وما أنزله عليهم فى الصحراء من المن والسلوى ، ويحذرهم من الطغيان ، وينبههم إلى أنه يتوب على التائبين من المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويلتزمون بهداه سبحانه .

ثم مرة أخرى نرجع مع الآيات إلى قصة موسى عليه السلام وذهابه للقاء ربه عند الجبل لتلقى ألواح الوحى والشريعة ، ومافعله السامرى أثناء ذلك الغياب من صنع العجل الذهبى وفتنته بنى إسرائيل به ، وعودة نبى الله غاضباً إثر علمه بماحدث من قومه أثناء ابتعاده عنهم ، وسؤاله هارون عن السبب الذى حدا به إلى ألاّ يترك قومه إثر ضلالهم ويتبعه ، وإجابة هارون بأنه قـــد خشى أن يُحْدث بين القوم فرقةً وشقاقا ، ثـم تحوله يسأل السامرى ، الذى زعم أنه عرف ما جهله الآخرون وأن نفسه قد سوّلت له أن يصنع ماصنع فنفذ هذا الذى سوّلته له نفسه ، فأمره موسى حينئذ أن ينصرف من وجهه داعياً عليه ألاّ يطيق أن يمسّه أحد مجرد مس ، ثم يأخذ العجل المعبود ويسحقه ويذروه على وجه الماء ، مبيناً لبنى إسرائيل أنه لا إله إلاّ الله ، الذى وسع كل شىء علما .

وتتحول الآيات إلى خطاب النبى محمد عليه الصلاة والسلام منبئة إياه أن من أعرض عن الذكر الذى آتاه الله إياه فسوف يكون مصيره يوم القيامة فى غاية السوء والخسران . وتستعرض الآيات بعض أحداث ذلك اليوم ، منتهية فى هذه الحلقة من السورة إلى نهى الرسول عن ترديد آيات القرآن أثناء نزول الوحى بها .

وتبدأ حلقة جديدة نقرأ فيها أطرافا من قصة آدم وإبليس ، ورفض عدوّ الله الأمر الإلهى بالسجود لأبى البشر ، وتحذير الله آدم عليه السلام من أن يستمع إلى وسوسات إبليس حتى لايخرج من الجنة ونعيمها الذى كان يتقلب فيه هو وزوجته ، وضعف آدم أمام إغراء ذلك اللعين وأكله من الشجرة التى نهاه الله عنا والتى خدعه عدو الله موهماً إياه أنها شجرة الخلد والملك الدائم الذى لايزول ، ونزوله عليه السلام هو وزوجته إلى الأرض حيث الشقاء وتعب البال

والعداوات ، وحيث أخبره اللّه أنه مرسل لذريته أنبياء ورسالاتٍ من اتبع مافيها من هُدًى سعد ونعم بالاً ، ومن أعرض عنها لم يكن له إلا الضَّنك والعذاب .

ويتحول الكلام إلى قوم النبى محمد صلى الله عليه وسلم وقساوة قلوبهم وعدم اتعاظهم بمصاير من سبقهم من الكفَّار ، وأنه لولا أن سبقت كلمة اللّه ألا يهلكهم لأوقع بهم عز وعلا نفس العذاب الذى أوقعه بهؤلاء السابقين .

وتصبّر الآيات الرسول عليه الصلاة والسلام على ما يلقاه من أذى قومه ، وتأمره بالاتجاه إلى ربّه بالتسبيح صباح مساء ، والصلاة له ، وعدم الالتفات إلى ما متّع الله به كثيرا من الكفار فتنةً لهم ، وتبيّن أن الله لايعاقب أمةً قبل أن يرسل إليها رسولاً حتى لايكون لها حجة عليه سبحانه وتعالى . ثم تنتهى السورة بهذا التهديد والوعيد : « قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوىّ ومن اهتدى » .

إن السورة تبدأ بخطاب النبى عليه السلام ، وتنتهى كذلك بخطابه صلى الله عليه وسلَّم : فى البداية تُبين له الآيات أن ربه لم ينزل عليه القرآن ليشقى بل تذكرة لمن يخشى ، وتذكر له بعض الصفات الإلهية . وفى الختام تتحدث الآيات عن قسوة قلوب الكفار من قومه عليه الصلاة والسلام وعدم اتعاظهم بماحدث للأمم الخالية من الكافرين وتصبّره على مايقولون فى حقّه يؤذونه به ، وتتوعدهم وتتحداهم . لكن السورة وإن ابتدأت وانتهت بمخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم فمضمون الخطاب ، كما نرى ، مختلف هنا عنه هناك ، وذلك على عكس مايقول سيد قطب ، رحمه الله ، إذ يرى أنها قد بدأت واختُتمت معاً ببيان وظيفة الرسول وحدود تكاليفه وأنها ليست شقوة كتبت عليه بل مجرد دعوة

وتذكرة وتبشير وإنذار ، وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد المهيمن على ظاهر الكون وباطنه الخبير بظواهر القلوب وخوافيها (١).

وبين المطلع والختام نطالع أطرافاً من قصة موسى عليه السلام نتتبع فيها اختياره للرسالة وذهابه إلى فرعون ، الذى لم يستجب لدعوة الهداية بل زاد كفراً وطغيانا ، ونجاة بنى إسرائيل من بطشه ، وغرقه ، وهو يطاردهم ، فى اليمّ ، الذى انشقّ فيه طريق يابس عبروه سالمين ، وتحول بنى إسرائيل أثناء غياب رسولهم عنهم أربعين ليلةً إلى عبادة العجل الذى صنعه لهم السامرى ، هذا العجل الذى انتهى أمره إلى نسفه فى اليم وانتهى أمر صانعه وفاتن بنى إسرائيل به إلى عدم إطاقته أن يمسَّه أى إنسان .

ومن ضمن ما نطالعه أيضا بين مطلع السورة وختامها قصة آدم وإبليس وضعف عزيمة آدم أمام وسوسات عدوه رغم سبق التحذير الإلهى له منه ومن ألاعيبه .

ويرى المودودى أن بين الآيات التى تعالج قصة موسى مع بنى إسرائيل وتلك التى تتناول قصة آدم وإخراجه من الجنة بعض المشابهات ، وأن هذه المشابهات هى السبب فى تضمينهما معا نفس السورة . وهذه المشابهات هى :

« ١- أن كلتا المجموعتين من الآيات تذكّر بنى آدم بـ « الدرس المنسىّ »، وهو التوجيه الذى علمه الله سبحانه للإنسان عند خلقه له .

٢- وأن كلتيهما ترينا أن الشيطان هو الذى يغرى الإنسان بنسيان الدرس ، وأنه قد نجح فى ذلك بأن جعل أبويه الأولين ينسيانه ، وأنه منذ ذلك الحين لايفتأ ينساه دائماً ، وأنه من ثمَّ قد حُذِّر من ذلك .

٣- وأن كلتيهما توضح للإنسان أن نجاحه أو فشله النهائى إنما يعتمد على موقفه من هذا « التوجيه » .

٤- وأن كلتيهما تعلم الإنسان أن هناك فرقاً بين الخطإ غير المقصود والإصرار على التمرد ، وكذلك بين نتائجهما ، وأن الإنسان (كما هو الحال مع نبى الله آدم وذريته وسحرة فرعون) إذا ما تنبّه إلى أن الشيطان عدوّه الأبدى قد أغواه فتاب من خطئه غُفر له ، على حين لا غفران للإصرار على التمرد ، كما فى حالة إبليس وفرعون والسامرى » (٢) .

ويقول محمد الطاهر بن عاشور فى المعاقبة بين قصة موسى وفرعون وبنى إسرائيل وقصة آدم وإبليس : « لما كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومع قومه ذات عبرة للمكذبين والمعاندين الذين كذبوا النبى صلى الله عليه وسلم وعاندوه ... فكأن النبى عليه السلام استحبَّ الزيادة من هذه القصص ذات العبرة رجاء أن قومه يفيقون من ضلالتهم ... أعقبت تلك القصة بقصة آدم عليه السلام وماعرَّض له به الشيطان تحقيقا لفائدة قوله : « وقل رب زدنى علما » . فالجملة عطف قصة على قصه ، والمناسبة ماسمعت. والكلام معطوف على جملة « كذلك نقصُّ عليك من أنباء ماقد سبق » . وافتتاح الجملة بحرف التحقيق ولام القسم لمجرد الاهتمام بالقصة تنبيها على قصد التنظير بين القصتين فى التفريط فى العهد ، لأن فى القصة الأولى تفريط بنى إسرائيل فى عهد الله ... وفى قصة آدم تفريطا فى العهد أيضا ، وفى كون ذلك من عمل الشيطان كما قال فى القصة الأولى:« وكذلك سولت لى نفسى» وقال فى هذه : « فوسوس إليه الشيطان »، وفى أن فى القصتين نسياناً لما يجب الحفاظ عليه

وتذكّره ، فقال فى القصة الأولى : « فنسى» وقال فى هذه القصة : « فنسى ولم نجد له عزما » (٣) .

وهذا كلام قريب مما قاله المودودى . أما سيد قطب فإنه يرى أن قصة آدم بإبرازها نقطة النسيان فيه عليه السلام تتسق مع الآيات السابقة عليها والتى تتحدث عن عجلة الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن خوف النسيان (٤) . وهو كما ترى ربط واهٍ فيه تكلف ، إذ فَرْقٌ بين نسيان ونسيان ، بل فَرْقٌ قبل ذلك بين من يبذل كل جهده ويشق فى ذلك على نفسه حتى لاينسى وبين من نسى فعلاً فى أول موقف اختبار وضع فيه رغم التشديد الإلهى فى تحذيره من ذلك النسيان وعواقبه .

على أن هناك موضوعا تكرَّرت الإشارة إليه والحديث عنه فى السورة ، وهو موضوع يوم القيامة : نقرأ فى مخاطبة الله سبحانه لموسى عندما اختاره نبيا : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتُجْزَى كل نفس بماتسعى * فلا يصدّنّك عنها من لا يؤمن بها واتّبع هواه فتردى » ٠ (٥) . ونقرأ هذه الآية تذييلاً للحوار بين موسى عليه السلام وفرعون : « منها (أى من الأرض) خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (٦) . ونقرأ قوله تعالى التالى فى آخر مادار من خطاب بين فرعون والسحرة الذين انقلبوا ساجدين وآمنوا بموسى عليه السلام : « إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لايموت فيها ولايحيى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك هم الدرجات العُلا * جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكّى » (٧) . ونقرأ ذلك التعقيب الإلهى على قصة موسى : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق

وقد آتيناك من لدنّا ذكرا * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا * خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً * يوم يُنْفَخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ... » إلخ الآيات (٨) . ونقرأ التحذير التالى لذرية آدم بعد إهباطه من الجنة إلى أرض الكدّ والشقاء : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (٩) . فهذا الموضوع الذى تكرر فى السورة يساهم فى الربط بين أطرافها ، إلى جانب وجوه الشبه التى عمل على إبرازها كل من الأستاذ المودودى والشيخ ابن عاشور رحمهما الله بين القصتين اللتين تضمنتهما السُّورة .

ولايقتصر الارتباط بين أطراف السورة على تقارب بعض موضوعاتها وتكرر بعضها الآخر أثناء ذلك ، وإنما يمتد فيشمل تكرُّر عدد غير قليل من الألفاظ والعبارات على مدى السورة الكريمة :

من ذلك كلمة « تشقى » ، التى وردت فى الآيتين الثانية ، والمائة والسابعة عشرة (بتاء المخاطب) وفى الآية المائة والثالثة والعشرين (بياء الغائب) : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » ، « فلايخرجنكما من الجنة فتشقى » . « فمن اتَّبع هداى فلايضلُّ ولايشقى » .

ومنه كلمة « العُلاَ » فى قوله تعالى فى أول السورة : « تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العُلاَ » (١٠) ، وقوله تعالى فى أواسطها : « فأولئك لهم الدرجات العُلاَ » (١١) .

ومن مادة « خفى » تقابلنا فى السورة لفظتان هما « أَخْفَى » (أفعلَ تفضيل) و « أُخفيها » (فعل مضارع مسند إلى ضمير المتكلم) :

« وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخْفَى » (١٢) ، « إن الساعة آتية أكاد أخفيها » (١٣) .

وتدخل لفظة «عَيْن » فى ثلاث صور فى السورة ، هى : « ولِتُصْنَعَ على عَيْنى » (١٤) ، « فرجعناك إلى أمك كى تَقَرَّ عَيْنُها » (١٥) ، « ولاتمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه » (١٦) .

وترتبط بالعين صفة الإبصار ، التى وردت فى الآيتين الكريمتين التاليتين : « إنك كنتَ بنا بصيرا » (١٧) ، « قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنتُ بصيرا ؟ » (١٨)

ومن مادة « صنع » يقابلنا فعل فى كل من الجملتين التاليتين : « ولتُصْنَعَ على عينى » (١٩) ، « واصطنعتُك لنفسى » (٢٠) . والخطاب فى الجملتين موجه إلى موسى عليه السلام .

ومن الألفاظ التى تكررت فى السورة الفعل « تَسْعَى » ، الذى تكرر مرتين فى أوائل السورة : « لتُجْزَى كل نفس بما تسعى » (٢١) ، « فألقاها فإذا هى حيّة تسعى » (٢٢) .

كما تكررت كلمة « اليمّ » أربع مرات : مرتين فى آية واحدة فى صدر السورة : « أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليمّ بالساحل » (٢٣) ، ومرة فى أواسطها : « فغشيهم من اليم ماغشيهم » (٢٤) ، ومرة قرب أواخرها : « لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليمّ نسفا » (٢٥) .

كذلك تكررت لفظة «النسف» مرتين : « ثم لننسفنه فى اليم نسفا » ، « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا » (٢٦) .

وكلمة « القرون » .: « قال فما بال القرون الأولى » (٢٧) ، « كم أهلكنا قبلهم من القرون » (٢٨) .

وكلمة « أزواجاً » : « فأخرجنا به أزواجا من نبات شتَّى » (٢٩) ، « ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم » (٣٠) .

وكلمة « ذِكْرْ » : « وأقم الصلاة لذكرى » (٣١) . « يُحْدث لهم ذكرا » (٣٢) . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » (٣٣) .

ومثلها عبارة « أخلف الموعد » : « فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نُخلفه » (٣٤) ، (فأخلفتم موعدى » (٣٥) ، « ما أخلفنا موعدك بملكنا » (٣٦) ، « وإن لك موعداً لن تُخْلَفَه » (٣٧) .

وانظر إلى قوله تعالى : «طريقتكم المُثلى » (٣٨) ، الذى تكرَّر فى السورة مرة أخرى ولكن بترتيب معكوس : « أمثلهم طريقة » (٣٩) .

وكذلك نَفْسى العِوَج فى آيتين متتاليتين : « لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا » (٤٠) ، « يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له » (٤١) .

وأيضا تكرر عبارة « أشد (أو « خير ») وأبقى » : « ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى » (٤٢) « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » (٤٣) ، « ورزق ربك خير وأبقى » (٤٤)

كما تكررت عبارة « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » مرتين فى السورة : الأولى فى أواخر الثلث الأول من السورة ، والثانية قرب الختام (٤٥) ... وغير ذلك .

إن هذه الألفاظ والعبارات المتكررة لهى أشبه بالأصداء المترددة والأمراس

التى تشدّ أجزاء السورة بعضها إلى بعض .

وجديـــر بالذكر أن هذه السمة متوفرة فى كثير من السور المتوسطة والطويلة .

وثمة رباط آخر لآيات السورة هو أن الفاصلة فى جميع الآيات تقريباً هى مَدّة الألف ، تلك الفاصلة التى لايخرج عنها إلا الآية الثامنة والسبعون ، التى تنتهى بكلمة « غشيهم » ، وإلاّ الآية الرابعة عشرة والآيات من الخامسة والعشرين إلى الثانيـــة والثلاثيـــن والآيتـــان الحاديـــة والأربعون والثانية الأربعون ، والآيات من الخامسة والثمانين إلى السادسة والتسعين (باستثناء الآية التاسعة والثمانين ، التى تنتهى بفاصلة الألف الممدودة) . وهذه الآيات تنتهى بمدة الياء ماعدا اثنتين منها تنتهيان بياء النسب ، وواحدة بمدة الواو .

وبالنسبة للفاصلة المنتهية بمدة الألف نراها تنقسم إلى قسمين : الأول بألف غير منونة (فى ختام فعلٍ أو اسم أو صفة) ، والثانـــى بألف منونـــة (فى ختام الأسماء والصفات فقط بطبيعة الحال) . والملاحظ بوجه عام أن آيات كلا القسمين يتلو عادة بعضها بعضا ، مثلما تتجاور عادةً الآياتُ المنتهة بفاصلة الياء الممدودة .

ليس ذلك فحسب ، بل إن ألفاظ الفواصل المتجاورة غير المنونة (فيما عدا فاصلة الألف الممدودة) قد أتت فى الغالب على صيغة واحدة : فمثلاً فواصل الآيات من الخامسة والعشرين إلى الثانية والثلاثين وكذلك الآيتين الحادية الأربعين والثانيـة والأربعين عبارة عن اسم مفرد (على وزن « فَعْل » فى كل الحالات ، ماعدا حالة واحدة) مضافٍ إلى ياء المتكلم . ثم إن فواصل الآيات

الثلاث التى تلى ذلك هى كلها صفة على وزن « فعِيل » . وكذلك نجد جميع فواصل الآيات من السابعة والتسعين إلى الخامسة عشرة بعد المائة ، ماعدا آية واحدة (هى الآية السادسة بعد المائة) ، أسماءً ثلاثية (ومرة صفة مجموعة) ساكنة الوسط منكرة منوَّنة : « نَسْفاً ، عِلْماً ، ذِكْراً ، وزراً ، حِملاً ، زُرقاً ، عَشْراً ، يَوْماً ... إلخ » .

والآيات بوجه عام تميل إلى القصر ، وأصغرها مكون من أربع كلمات ، وأكبرها نحو خمس وعشرين كلمة .

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الهوامش

١- سيد قطب / فى ظلال القرآن/دار الشروق/ بيروت/١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م / ٤ / ٢٣٢٦ .

2- S. A. A. Maududi , The Meaning of the Qur'an , Vol. VII , P. 124.

٣- محمد الطاهر بن عاشور / تفسير التحرير والتنوير / الدار التونسية للنشر / ١٩٨٤ م / ١٦ / ٢١٨ .

٤- انظر « فى ظلال القرآن » / ٤ / ٢٣٥٣ .

٥- طه / ١٥ - ١٦ .

٦- طه / ٥٥ .

٧- طه / ٧٤ - ٧٦ .

٨- طه / ٩٩ - ١١٢ .

٩- طه / ١٢٤ .

١٠- طه / ٤ .

١١- طه / ٧٥ .

١٢- طه / ٧ .

١٣- طه / ١٥ .

١٤- طه / ٣٩ .

١٥- طه / ٤٠ .

١٦- طه / ١٣١ .

١٧- طه / ٣٥ .

١٨- طه / ١٢٥ .

١٩- طه / ٣٩ .

٢٠- طه / ٤١ .

٢١- طه / ١٥ .

٢٢- طه / ٢٠ .

٢٣- طه / ٣٠ .

٢٤- طه / ٩٧ .

٢٥- طه / ١٠٥

٢٦- طه / ٥١ .

٢٧- طه / ١٢٨

٢٨- طه / ٥٣ .

٢٩- طه / ١٤

٣٠- طه / ١٣١ .

٣١- طه / ١٤

٣٢- طه / ١١٢

٣٣- طه / ١٢٤

٣٤- طه / ٥٨

٣٥- طه / ٨٦ .

٣٦- طه / ٨٧ .

٣٧- طه / ٩٧ .

٣٨- طه / ٦٣ .

٣٩- طه / ١٠٤

٤٠- طه / ١٠٧ .

٤١- طه / ١٠٨ .

٤٢- طه / ٧١ .

٤٣- طه / ١٢٧ .

٤٤- طه / ١٣١ .

٤٥- طه / ٥٤ ، ١٢٨ .

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

مقارنة بين قصتى موسى وآدم فى القرآن الكريم والعهد القديم

لاحظتُ أن عدداً من المفسّرين والكتاب ومترجمى القرآن إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية قد قاموا ، أثناء تناولهم لقصة موسى عليه السلام مع قومه وقصة آدم وحواء فى الجنة مع إبليس ، اللتين وردتا فى سورة « طه » (وغيرها من السور) ، بالمقارنة بين القصتين كما جاءتا فى القرآن الكريم وفى العهد القديم . فأحببتُ أن أدلى بدلوى فى هذا المجال المهم ، فنحن المسلمين نؤمن أن القرآن هو كلام الله أنزله على محمد عليه الصلاة والسلام بالحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، ونؤمن أيضا أن كتب أهل الكتاب ، كما أخبرنا المولى عز وجل فى كتابه الكريم ، قد عبثت بها أيدى العابثين ودخلتها الأهواء التى حرفتها عن وضعها الذى كانت عليه عندما نزلت من السماء . أمّا اليهود والنصارى فإنهم يدّعون أن رسولنا عليه أفضل الصلاة والسّلام قد أتى بالقرآن من عند نفسه وأن فى هذا القرآن أخطاءً ناجمة عن أنه مستمد من المعلومات التى كان يسمعها رسولنا الكريم من هنا وهنا والتى لم تكن تصله دائماً على وجهها الصحيح . والمقارنة بين كتابنا وكتبهم فى النقاط المشتركة بينهما كفيلة بأن تكشف عن وجه الحق الأبلج . وهذا أفضل من ترك الأمور على ماهى عليه ، مما يعطى المبطلين فرصة للتقول وإرسال المزاعم على هواهم .

لكننى أجد لزاماً علىَّ فى البداية أن أصحح خطأ يقع فيه بحسن نية بعض الباحثين المسلمين ، إذ يتحدثون عن « التوراة » وهم يقصدون « العهد

منتدى سور الأزبكية

القديم » أو بعض أسفاره ، مع أن ثمة فرقا هائلا بين هذا وذاك . ومن هؤلاء مثلا د . محمد الطيب النجار ، الذى يقول فى كتابه « تاريخ الأنبياء فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية » ، وهو بصدد المقارنة بين ماجاء فى القرآن الكريم عن قصة موسى عليه السلام مع الفتاتين اللتين استقى لهما عند البئر فى أرض مدين وماهو مكتوب فى سفر « الخروج » من العهد القديم عن القصة ذاتها : « وتُصوِّر التوراة هذا الموقف على مثل هذا النحو الذى يصوره القرآن الكريم عدا مخالفات يسيرة ، إذ تقول التوراة إن الشيخ هو الذى طلب استئجار موسى وليست البنت هى التى طلبت من أبيها استئجاره . وتقول التوراة كذلك إن بنات الشيخ كنَّ سبعا . وهى مخالفات هينة يمكن تأويلها ، إذ يقال إن الشيخ هو الذى طلب من موسى بعد أن قالت له ابنته ذلك ، كما يقال إن بناته يمكن أن يصل عددهن إلى سبع » (١) ، كما يقول عن النذر التى أرسلها الله على يد نبيه موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه : « وقد ذكرت التوراة هذه النذر التى أرسلها الله إلى فرعون وقومه ... » (٢) .

ووجه الخطإ فى هذا أن « التوراة » هى تلك الألواح التى تلقّاها موسى عليه السلام من ربّه حينما ترك قومه وذهب للقائه سبحانه عند الجبل . أما « العهد القديم » فهو عبارة عن تاريخ بنى إسرائيل مع التمهيد له بالكلام عن خلق الإنسان وتناسل آدم وذريته . وهذا التاريخ كتبه اليهودُ بعد موسى بأزمان متطاولة اعتماداً على الرواية الشفوية التى عدت عليها عوادى النسيان والتزيد والنقص والتحريف وعبث الأهواء ، مما أفاض فيه العلماء المحققون منهم . وفى هذا التاريخ نطالع مايقول اليهود إنه نصوص التوراة ومزامير داود وغير ذلك . إن

العهد القديم فى عمومه هو عبارة عن أحداثٍ تُقَصُّ على لسان رواةٍ من البشر وليس وحياً إلهيا ، وإن كان فيه لمحات من ذلك الوحى (٣) ، أما « التوراة » فهى شىء آخر . والمرجو أن يتنبه الكتاب المسلمون حينما يتناولون هذه المسألة ولا ينزلقوا إلى هذا الخطإ الشنيع .

ذلك وقد استطعتُ أن أخرج من المقارنة بين القرآن الكريم والعهد القديم فيما يخص قصة موسى عليه السلام بالنقاط التالية :

فى « العهد القديم » نقرأ أن أم موسى عليه السلام ، بعد ثلاثة أشهر من ولادته وبعد أن لم تستطع أن تخبئه أكثر من ذلك ، أخذت سَفَطاً من البردى وطلته بالحُمَر والزفت ووضعت موسى فيه ثم وضعت السَّفَط بين الحَلفْاء على حافة النهر ، بينما وقفت أختُه من بعيد لتعرف ماذا سيحدث ، وأن ابنة فرعون قد نزلت النهر لتستحم فى الوقت الذى كانت فيه جواريها يمشين على شط النهر فرأت السَّفَط بين الحَلفْاء فأرسلت أمةً لها لتحضره ، ولما فتحته وجدت صبيا يبكى فقالت إنه من أولاد العبرانيين ، وأنَّ ابنة فرعون هى التى تبنَّته (٤) .

أما فى القرآن الكريم فلا ذكر لإخفاء أم موسى إياه ثلاثة أشهر . وهذا ليس من الأهمية بمكان . لكن القرآن يقول إن الأم قد ألقت ابنها بناءً على وحى الله لها فى تابوتٍ وإنهـا قذفت به فى اليمّ ، الذى ألقاه إلى الساحل ، وإن التى اتخذته ولداً هى امرأة فرعون لا ابنته (٥) .

والذى أود أن ألفت الانتباه نحوه هو أن أم موسى ، كما ورد فى « العهد القديم » قد طلت السَّفَط بحُمَرٍ وزفت ، وهذه العملية إنما يقوم بها صناع القوارب والمراكب منعاً لتسرب الماء إليها حتى لاتغرق (٦) . فلماذا فعلت أم

موسى هذا إذا كان قصدها مجرد وضع السَّفط بين الحلفاء على شاطىء النهر وليس فى النهر نفسه؟ ألا يدل هذا على أن رواية القرآن هى الرواية الصحيحة ؟ إن كاتب القصة فى « العهد القديم » قد فضحته هذه التفصيلة التى بقيت فى ذاكرته أولم يشأ له شيطانه العبث بها فأبقاها كما هى لتبرز التناقض فى روايته ولتشهد للقرآن الكريم بالصّدق والدقة .

ويقول « العهد القديم » عن حادثة قتل المصرى على يد موسى : « وحدث فى تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر فى أثقالهم فرأى رجلاً مصريا يضرب رجلا عبرانيا من إخوته فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصرى وطمره فى الرمل » (٧) .

وهذا كما ترى قتلٌ عَمْدٌ أقدم عليه موسى بعد أن اتخذ حيطته وتأكد أن أحدا لايراه ، ثم لم يكتف بهذا بل طمر القتيل فى الرمل وانطلق كما هو واضح خفيف الضمير لايحسّ بتأنيب ولا أسف . ولا أظن أن نفساً إنسانية سليمة من الآفات والعاهات التى أصابت بنى إسرائيل يمكن أن تتخيَّل أن موسى ، الذى اختاره الله بعد ذلك نبياً يحمل رساله السماء ويكون عنواناً للأخلاق العالية الكريمة والسلوك الإنسانى الرحيم ، يقدم على هذا النحو الخسيس على قتل نفس إنسانية بسبب عراك مصرى مع واحد من بنى جلدته .

أما القرآن الكريم فهو يروى القصة على نحو مخالف ، إذ يقول إن موسى قد وكز المصرى فكان فى هذه الوكزة حتفُه ، وإنه قد أحسَّ على الفور بتأنيب الضمير والغم الشديد ، إذ شعر أن هذا الاندفاع إلى ضرب المصرى هو من عمل الشيطان ، ورأى أنه ارتكب ذنباً كبيرا بإزهاقه ، ولو عن غير عمد ، نفساً

بشرية ، وأخذ يبتهل إلى الله أن يغفر له . وحينما ذكره فرعون بهذه الفعلة بعد عودته بسنوات إلى مصر ، التى كان قد فر منها من وجه المؤامرة التى كان يدبرها الملأ لقتله ، اعترف عليه السلام بأنه فعلها حينئذ وهو من الضالين . وعلاوة على هذا فإن القرآن يذكر أن الذى حمل موسى على التدخل بين المتعاركين هو استغاثة الإسرائيلى به (٨) . أما « العهد القديم » فيصور نبى الله راغبا فى القتل منذ اللحظة الأولى ، إذ تدخل من تلقاء نفسه دون أن يطلب إليه الإسرائيلى ذلك ، ثم قتل المصرى فى الحال بعد أن استوثق من أن أحداً من الناس لا يراقبه .

وفى قصة ورود موسى عليه السلام ماء مدين يذكر كاتب العهد القديم أنه كان لكاهن مديان سبع بنات فذهبن يستقين ، لكن الرعاة طردوهن ، فقام موسى وسقى لهن الغنم (٩) ... إلى آخر القصة . أما القرآن فإنه يقول إنهما كانتا امرأتين اثنتين لافتيات سبعا . والكلام بطول القصة منذ مشهد السَّقى إلى أن تزوج موسى إحداهما يدور كله حول امرأتين اثنتين ليس غير (١٠) .

وقد اجتهد د . محمد الطيب النجار ، كما سبق أن رأينا قبل قليل ، محاولاً أن يوفق بين الروايتين فقال إن بنات الشيخ « يمكن أن يصل عددهن إلى سبع » (١١) . لكن المشكلة ليست فى أن الشيخ كان له بنتان أو أكثر ، وإنما فى العدد الذى سقى له موسى : أهو اثنتان كما يقول القرآن أم سبع كما جاء فى العهد القديم ؟ ولا يمكن التوفيق كما هو بيّن بين العددين بحال . ونحن المسلمين بطبيعة الأمر نأخذ بما ورد فى القرآن لا بما سطره اليهود فى كتبهم بأيديهم وقالوا إنه من عند الله . ونحن حين نتخذ هذا الموقف لا نفعله تعصُّبا

أعمى ، فقد ثبت لدى المحققين من علماء أهل الكتاب أنفسهم أن كتب القوم ليست أهلا للثقة (١٢) . وقد رأينا وسنرى من خلال هذا الفصل الذى نحن فيه الآن مصداق ذلك . ولكى يطمئن العقل النقدى لدى القراء أقول لهم إن كاتب القصة فى « العهد القديم » يسمّى الشيخ والد المرأتين « رعوئيل » مرة (١٣) و « يثرون » أخرى (١٤) ، وذلك فى عدة أسطر قلائل فقط . فهل من يخطىء هذا الخطأ الفاحش يكون جديراً بأن نوليه ثقتنا ونصدق مايقول ؟

ذلك ، وبينما ذكرت سورة « القصص » المهر الذى كان على موسى عليه السلام أن يدفعه فى مقابل تزوجه بإحدى بنات الشيخ ، وهو اشتغال موسى عند ذلك الشيخ ثمانى سنين أو عشرا (١٥) ، فإن « العهد القديم » لم يكن واضحاً ولامحددا فى هذا الشأن ، إذ قال فقط : « وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان » (١٦) ، وذلك دون أن يبيّن أكان هذا الرعى هو مهر زوجته أم لاعلاقة بين الأمرين .

وفى الحديث عن معجزة اليد فى رسالة موسى عليه السلام نطالع فى « العهد القديم » أن الله قال له : « أدخل يدك فى عُبّك . فأدخل يده فى عبّه ثم أخرجها ، وإذا يده برصاء مثل الثلج . ثم قال له : رد يدك إلى عبك . فرد يده إلى عبه ثم أخرجها من عبه وإذا هى قد عادت مثل جسده » (١٧) . فالعهد القديم يجعل المعجزة فى تحول اليد « برصاء مثل الثلج » .

أمّا القرآن فإنه يجعلها فى تحول يد موسى « بيضاء من غير سوء » (١٨) . وواضح أن القرآن الكريم يردّ على كاتب الرواية فى « العهد القديم » ، نافياً أن تكون يد موسى قد استحالت برصاء ، مما من شأنه أن

ينفّر الناس منه ، فتتحول المعجزة ضدّ نفسها ، إذ إن الله يؤيد بها رسله لجذب الناس إليهم وإلى دعوتهم لا إلى تنفيرهم منها ومنهم . ورواية القرآن هى الرواية التى تقنع العقل والوجدان ، لأنها هى التى تتسق مع كون موسى رسولاً من رسل الله لاينبغى أن يظهر بأى مظهر ينفّر منه الخلق .

وعند إخبار الله تعالى عبده موسى أنه قد اختاره نبياً نراه ، فى « العهد القديم » ، يعترض على الاختيار الالهى ويكلم ربّه على نحو غير لائقٍ البتة ، إذ يقول : « اسمع أيها السيد ، لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمتَ عبدك ، بل أنا ثقيل الفهم واللسان » . وحين يطمئنه الله أنه سيرسل معه هارون ليتكلم عنه يوغل موسى فى الاعتراض والرفض قائلاً : « استمع أيها السيّد . أرسل بيد من ترسل » . ويفترى كاتب « العهد القديم » قائلا « فحمى غضب الرب على موسى » (١٩) . والقصة تصور موسى وكأنه (أستغفر الله) أحد البداة الأجلاف يخاطب بدويا جلفا مثله ، وليس نبيّا فى حضرة سيده ربّ الكون . ثم كيف يحمى غضب الله على من اختاره هو نفسه رسولا ؟

لكن القرآن يرسم الأمر على نحو مختلف يليق بالشخص الذى اصطفاه الله سبحانه وبالموقف الجليل الذى وجد نفسه فيه . لقد كان ردّ موسى حينما أعلنه ربه باجتبائه له رسولاً إلى فرعون أن قال : « رب اشرح لى صدرى * ويسّر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبّحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلك ياموسى » (٢٠).

وهذا هو الأليق بالله وبعبده ونبيه موسى ، وهو الذى يطمئن إليه قلب كل من لم تفسد طبيعته ويلتو ضميره ويتغلغل الدغل فى عقله وقلبه .

وفى « العهد القديم » أن هارون كان أكبر من موسى بثلاث سنين ، وكان عمرهما إذ أمرهما الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ثلاثا وثمانين ، وثمانين سنة على التوالى (٢١) . أما القرآن فقد سكت عن هذا الأمر .

وعلى خلاف القرآن الكريم ، الذى يجعل من هارون نبيًا مع موسى ووزيراً وعضداً له وردءاً يصدقه (٢٢) ، يجعله الكاتب اليهودى نبيا لموسى (لانبيا معه) ، ويجعل موسى إلها لفرعون . كيف يكون ذلك ؟ لا أدرى ! يقول العهد القديم مانصه : « فقال الرب لموسى : انظر ، أنا جعلتُك إلها لفرعون ، وهارون أخوك يكون نبيك » (٢٣) . ولا أظن أن هناك من يخالف فى أن ماذكره « العهد القديم » هو السخف بعينه بل الكفر والعياذ بالله . ولكن متى كان مزوّرو « العهد القديم » يعرفون لقداسة أى شىء حقها ؟ وها هو ذلك الكتاب مملوءاً بالكفريات والتجديفات والهرطقات . والعجيب أن هناك من يحاولون أن يقنعوا الناس أن هذا الكفر السخيف هو وحى من عند رب العالمين أمر الله عباده أن يدينوا به ويصدقوه وإلاّ تعرضوا لسخطه وعذابه !

ولانجد فى « العهد القديم » تحديداً ليوم اللقاء بين موسى عليه السلام والسحرة ، أما القرآن فقد ذكر أنه « يوم الزينة » فى الضحا (٢٤) .

وفى « العهد القديم » أن هارون هو الذى ألقى عصاه أمام فرعون بأمر من الله فصارت ثُعباناً (٢٥) ، أما فى القرآن فإنه موسى (٢٦) .

والقصة فى القرآن بذلك متّسق بعضها مع بعض ، إذ إن موسى هو الذى

علمه الله آية العصا (وآية اليد) عند لقاء النار الذى أخبره فيه باجتبائه رسولاً (٢٧) . أما العهد القديم فيُناقض بعضه بعضاً ، إذ على حين تقول روايته إن موسى (كما فى القرآن الكريم) هو الذى علمه الله تينك الآيتين (٢٨) ، وإن الله قال له بالنصّ : « عندما تذهب لترجع إلى مصر انظر جميع العجائب التى جعلتُها فى يدك واصنعها قدام فرعون » (٢٩) ، نجدها تقول بعد ذلك إن هارون هو الذى ألقى العصا بأمر من الله أمام فرعون فصارت ثُعبانا ، رغم أن دور هارون كما تقول الرواية نفسها كان منحصرا فى أن يردّد للناس مايريد موسى تبليغه لهم ، أما العصا فقد أُمر موسى أمْراً أن يأخذها فى يده لكى يصنع بها الآيات . وهذا هو نص الكلام : « وقال (الله) أليس هارون اللاوىّ أخاك ؟ أنا أعلم أنه هو يتكلم ... فَتُكَلّمه وتضعُ الكلمات فى فمه ، وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأعلمكما ماذا تصنعان . وهو يكلم الشعب عنك ، وهو يكون لك فماً وأنت تكون له إلها . وتأخذ فى يدك العصا التى تصنع بها الآيات » (٣٠) . والآن ، ما القول فى هذا ؟ أليس هو التناقض بعينه ؟

وبالإضافة إلى ذلك لانجد فى « العهد القديم » أن موسى قد استعرض أمام فرعون معجزة اليد ، مع أنه قد ورد فيه مانصه كما رأينا : « وقال الرب لموسى : عندما تذهب لترجع إلى مصر انظر جميع العجائب التى جعلتُها فى يدك واصنعها قدام فرعون » . ومعلوم أنَّ تحول اليد بيضاء (٣١) كالثلج كان من المعجزات التى جعلها الله فى يد موسى كما سبق أن أشرنا ، فلماذا لم يُرِها لفرعون ؟

وفى « العهد القديم » عقوبات يقول كاتبه إن الله قد سلّطها على فرعون

وقومه لم يذكرها القرآن الكريم ضمن « الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم » (٣٢) . وهذه العقوبات هى الذبّان والدمامل وموت السمك فى النهر وإنتانه والبَرَد وموت الذكور من البهائم والأولاد والظلام الدامس الذى يُلْمَس باليد (٣٣) .

ويخلو « العهد القديم » من ذكر إيمان السحرة الذى ورد فى القرآن الكريم عندما تيقنوا أن عصا موسى التى ابتلعت عصيهم وحبالهم ليست سحراً كسحرهم فسجدوا لله سبحانه وتحدّوا تهديد فرعون لهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم فى جذوع النخل وآثروا البينات التى تجلّت لهم على فرعون ودنياه (٣٤) .

ويذكر كاتب « سفر الخروج » أن فرعون وقومه هم الذين طلبوا من موسى وألحوا عليه أن يخرج بنى إسرائيل من بلادهم ويعبدوا الله كما يحبُّون (٣٥) . أمَّا فى القرآن الكريم فالله هو الذى أمر موسى أن يأخذ قومه ويسرى بهم ليلاً وعرَّفهم أن فرعون وجنوده متّبعوهم (٣٦) . وكلام القرآن يتفق أوله مع آخره ، لأنه لايُعْقَل أن يأذن فرعون لبنى إسرائيل بالخروج من بلاده بل ويلح هو وشعبه عليهم فى ذلك ثم يتبعوهم بعد أن خرجوا ليقتلوهم . لقد كانوا يستطيعون ذلك ، وبسهولة أكثر ، وهم فى مصر بين ظهرانيهم وفى قبضة أيديهم . والعجيب أن مؤلف القصة فى « العهد القديم » يعود فيفضحه قلمه ، إذ يقول بعد ذلك : « فلما أُخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغيّر قلب فرعون وعبيده على الشعب ... » (٣٧) . فكيف يُسمَّى خروج بنى إسرائيل من بلاد فرعون بإذنه بل بإلحاح منه هو وشعبه « هروبا » ؟ أليس هذا برهانا ساطعا على أن

ماجاء فى « العهد القديم » غير جدير بالاطمئنان إليه والثقة به إلاَّ ما وافق القرآن الكريم ؟ ومع هذا فقد وجدت محمد الطاهر بن عاشور للأسف يردد رواية « سفر الخروج » فى تفسيره للآية التاسعة والسبعين من سورة « طه » (٣٨) .

وفى « العهد القديم » تحديد للبحر الذى عبره موسى عليه السلام وقومه وغرق فيه فرعون وجنوده وكذلك للموضع الذى عبروه منه ، إذ جاء أنه بحر سُوف عند فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون (٣٩)، أما القرآن الكريم فلم يتعرض لهذه التفصيلات . ولذلك نضرب عن الخوض فى هذا الموضوع صفحا .

وهناك نقطة قد تبدو ضئيلة الشأن أرى أن أضعها تحت بصر القارىء ، وهى أن « العهد القديم » فى كلامه عن انفلاق البحر لموسى عليه السلام وأتباعه قد وصف الماء بأنه « سورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم » (٤٠) ، أما القرآن فقد جاء فيه : « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم » (٤١) . قد يقول قائل إن من الممكن ألا يكون هذا تعارضاً ، ويكون كل من العهد القديم والقرآن الكريم قد وصف انفلاق البحر من زاوية مختلفة : العهد القديم وصف استواء فِرَقى الماء فى انتصابهما على الجانبين ، والقرآن الكريم وصف ضخامتهما وارتفاعهما . بيد أنّنى أرى فى تشبيه الماء بالسُّور شيئاً من التعارض مع تشبيهه بالطود العظيم ، لأن السور مهما علا بناؤه لايمكن أبدا أن يطاول الجبل الشامخ .

أيا ما يكن الأمر فإن القرآن قد وصف كل فِرْق من فِرَقى البحر بأنه كان

« كالطود العظيم » كما قلنا . وعلى هذا فإننى أستغرب كيف سها المودودى رحمه اللّه فقال إنه « بناء على ماجاء فى هذه الآية فإن البحر قد انفلق وانتصب كسورين عاليين على الجانبين » (٤٢) . يبدو لى أن الأستاذ المودودى ، وهو الذى كان متشددا فى دينه عظيم الغيرة عليه ، قد تأثر سهوا بما جاء فى رواية كاتب « سفر الخروج » .

وقد سكت « سفر الخروج » عمّا ذكره القرآن الكريم من إيمان فرعون عندما أدركه الغرق وقوله حينذاك : « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » ، ورفض الله سبحانه هذا النوع الاضطرارى من الايمان الذى لاينبع من القلب ولايتمتع بالصدق واستقامة الضمير (٤٣) .

ويزعم « العهد القديم » أن الله « كان يكلم موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » (٤٤) . وهذا يتعارض مع ماجاء فى القرآن الكريم من أنه عليه السلام حينما طلب من ربه أن يمكّنه من النظر إليه ردّ سبحانه وتعالى قائلا : « لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى فلما تجلىّ ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبتُّ إليك وأنا أول المؤمنين » (٤٥) ، كما يتعارض مع قوله عزّ من قائل : « وماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب » (٤٦) . وهذا هو اللائق بجلال الله وعظمته . والعجيب أن كاتب « العهد القديم » يعود بعد عدة أسطر فيقول على لسان المولى سبحانه مخاطبا موسى عليه السلام عندما رجاه أن يريه مجده : « لاتقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لايرانى ويعيش » (٤٧) . وأعجب من ذلك أن نفس الكاتب يعود فينتكس ، إذ يزعم أن بقية كلام الله سبحانه كانت

على النحو التالى : « هو ذا عندى مكان ، فتقف على الصخرة ، ويكون متى اجتاز مجدى أنى أضعك فى نقرة من الصخرة وأسترك بيدى حتى أجتاز . ثم أرفع يدى فتنظر ورائى ، وأما وجهى فلايُرَى » (٤٨) ، أى أنه بناءً على هذا الكفر الفجّ يمكن رؤية الله من خلف لامن أمام ! فأىّ اضطراب عقلىّ وأى افتراء سمج هذا !

ونصل إلى طامة من طوامّ « العهد القديم » الثقيلة ، إذ يتهم مؤلف قصة موسى عليه السلام هارون بأنه هو الذى صنع العجل لبنى إسرائيل فى أثناء غياب موسى عنهم فى مدة الأربعين ليلة التى ذهب فيها لميقات ربّه ، وأنه بنى لعبادته مذبحاً . يقول ذلك المؤلف : « ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : « قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه ، فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها . فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالازميل وصنعه عجلا مسبوكا ، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه . ونادى هارون وقال : غداً عيد للرب ، فبكروا فى الغد ، وأصعدوا مُحْرَقات ، وقدّموا ذبائح سلامة . وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للّعب » ، أى للصياح والغناء والرقص عراة (٤٩) .

وكأن هذا لايكفى فى الإساءة إلى نبى الله هارون عليه السلام ، فقد نسب الكاتب الكذب أيضا إليه إذ جعله يقول لموسى بعد عودته وإنكاره ماوقع إنه

لم يفعل أكثر من أنه قد طرح الذهب الذى جمعه من بنى إسرائيل فى النار فخرج منها هذا العجل (٥٠) ، فهو ينكر أنّه (على رواية « العهد القديم ») هو الذى صنع العجل ونحته بالازميل .

والقرآن فى روايته قصة العجل الذهبى يضع الأمور فى نصابها ، إذ يقول إن الذى صنع العجل هو السامرىّ الأفاك المغرور ، فانقاد له بنو إسرائيل ، الذين حاول هارون أن يثنيهم عن ضلالتهم وكفرهم فكادوا يقتلونه ، فما كان منه إلا أن انتظر على مضض حتى يرجع إليه موسى (٥١) .

ومن العجب العاجب أن يقول كاتب مادة « Al-Samiri » فى « Encyclopaedia of Islam » إنَّ القرآن الكريم قد ذكر فى سورة « الأعراف » (الآيات / ١٤٦- ١٥٣) خطيئة بنى إسرائيل وهارون كما تحدث عنها « سفر الخروج » ، ولكن بعد أن أضاف إلى القصة أن العجل المصنوع من الذهب كان يخور . ثم يمضى ذلك المستشرق قائلاً إن رواية سورة « طه » لهذه الحادثة تجعل السامرى هو الذى أضل بنى إسرائيل (٥٢) . وهذا كما هو واضح كذب وبطلان ، فالقرآن الكريم لم يسق الحادثة قط كما جاءت فى « سفر الخروج » ، الذى يتهم ملفقوه هارون عليه السلام بأنه هو الذى أضلّ بنى إسرائيل وصنع لهم العجل وبنى له مذبحاً ودعاهم إلى عبادته والصياح والرقص حوله عراةً ، بل برأه الله سبحانه وتعالى فى كل من سورتى « الأعراف » و « طه » تبرئة قاطعة .

وهذا الذى يقوله القرآن هو مايقبله العقل ويهش له الضمير ، فلايعقل أن يقدم نبى من أنبياء اللّه على هذا الكفر البواح وبمثل هذا الاستخفاف . إن

الأنبياء هم قادة أقوامهم فى مدارج الايمان والنور ، ولم يكن واحد منهم قطّ ذيلا لقومه يوماً ولا كذّابا ، إلا أن اليهود قوم بهت يفترون الأكاذيب والضلالات على الله وعلى رسله وأنبيائه المصطَفيْنَ الأخيار . والعهد القديم يعجُّ بهذه المفتريات الملوثة . والقوم لايخجلون بل يزعمـون أنَّ هـذا وحـى إلهىّ . وفى « سفر التكوين » أن اللّه كان يتمشى فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ منه آدم فى وسط الشجر ، فنادى الله آدم : « أين أنت ؟ » (٥٣) . فبالله هل يعقـل أن الرّب يتمشى فـــى الجنة ؟ وعند هبوب ريح النهار أيضا ؟ وآدم وحواء يختبآن منه ؟ لعمرى كيف وأين يتأتى لمخلوق أن يختبىء من العليم السميع البصير ؟ ويصّور ملفقو « العهد القديم » نوحاً عليه السلام وهو فى حالة سُكْر بيّن وعُرى فاضح ويجعلون ابنه يرى عورته وهو على هذه الحال المنكرة (٥٤) . ألا شاهت الوجوه ! ثم إن العجيب أن يلعن نوح بعد ذلك ابنه الذى رآه . فبالله ماذنب الابن المسكين ؟ ويفترى الأفاكون على لوط عليه السلام أن ابنتيه سقتاه خمرا واضطجعتا معه الواحدة وراء الأخرى ، وذلك بعد أن أصبح شيخا كبيرا ، وحبلتا منه وأنجبتا (٥٥)... وعشرات غير هذه من الكفر الأثيم اللئيم (٥٦) . من هنا فلاغرابة أن نجد اليهود وقد نسبوا إلى هارون ، افتراء وكذبا ، صنع العجل وعبادته له مع بنى إسرائيل أثناء لقاء أخيه بربه .

وحتى بحسب بقية هذه الرواية فى « العهد القديم » نجد الأمر غريبا لايتسق مع بعضه البعض ، كما لاحظ بحقّ أبو الأعلى المودودى ، إذ يقول ماترجمته : « وإذا مضينا فى هذا الإصحاح قليلاً نجد الكتاب المقدس يناقض نفسه ، فهو يقول إن موسى عليه السلام قد أمر بنى لاوى (الذين هو منهم)

أن يقتلوا جميع ذويهم وأصدقائهم وأهل بلدهم الذين اقترفوا خطيئة عبادة العجل ، وكانت محصلة القتل فى ذلك اليوم ثلاثة آلاف رجل » (٥٧) . ثم يمضى المودودى قائلا : « والآن نتساءل : لِمَ لَمْ يُقْتَل هارون إذا كان هو صاحب عبادة العجل ؟ لِمَ لَمْ يَطْلُبْ بنو لاوى من موسى أن يقتل أخاه هارون ، الذى كان هو الآثم الحقيقى ، بالضبط مثلما طُلب منهم أن يقتلوا إخوتهم ؟ » ويضيف المودودى قوله : إن الكتاب المقدس يذكر أيضا أن موسى بعد هذه الواقعة رجع إلى ربّه ودعاه أن يغفر لهم خطيئاتهم أو يمحوه من قائمة الأحياء ، وإن الله قد أجابه بأن « من أخطأ إلىَّ أمحوه من كتابى » (٥٨) . لكننا نعرف من مطالعتنا للكتاب المقدس أن اسم هارون لم يُمْحَ بل على العكس من ذلك أعطاه الله هو وأولاده وسائر أسرته مسؤولية المذبح وأُسندت إليهم وظيفة الكهنوت لبنى إسرائيل (٥٩) . وهكذا فمن الواضح تماماً من شهادة الكتاب المقدس نفسه أنه يُناقض بعضه بعضاً ، مؤيدا بذلك القرآن فى تبرئة هارون عليه السلام » (٦٠) .

وهذا ، والحق يقال ، منطق قاهر . لكن أين الأذن التى تسمع ، والقلب الذى يفهم ؟ إلاَّ أننى مع ذلك لا أستريح لما افترضه المودودى رحمه اللَّه من أن السامرى صانع العجل ربما كان اسمه الحقيقى (٦١) هارون ، وأن اليهود لهذا السبب قد اختلط عليهم الأمر مع مرور الزمن وظنوه هارون أخا موسى (٦٢) . إن هذا الكلام يبدو وكأنه يهدف إلى إيجاد العذر لبنى إسرائيل ، الذين لم يتركوا نبيا ولا رسولاً فى تاريخ البشرية لهم أو لغيرهم إلاَّ وحاولوا تلويث عرضه وسمعته ، وهيهات . فهل نقول أيضا إنه كان هناك فى قوم كل نبى واحدٌ يتسمى

باسمه ، هو الذى فعل ما نسبه اليهود إليه وبمرور الأيام نسوا المجرم الحقيقى وألصقوا جريمته بذلك النبى ؟ إن اليهود أكثر إجراماً وأعرق فى الاثم والكفر من أن نبحث لهم عن مثل هذا المخرج . وفضلا عن ذلك فليس لدينا أدنى شىء يمكن أن يوحى بذلك الافتراض الذى طرحه المودودى . والله قد سماه « السامرى » ، فهو إذن « السامرى » ، ولانكلّف أنفسنا وراء ذلك شيئاً .

وإذا كان المودودى قد خطر له أنه ربما كان اسم السامرى « هارون » فإن فى بعض كتب التفسير أن اسمه « موسى (بن ظفر) » (٦٣) ، أى كأنه لابدَّ أن يكون هذا الأثيم الزنيم سميًّا لأحد النبيين الكريمين .

وأنا فى الحقيقة لاأعرف لماذا هذا الإصرار على البحث لهذا الرجل عن اسم آخر غير السَّامرى . وحتى لو افترضنا أن هذا ليس اسمه الأول فلم لايكون لقبه ، كما نقول : « السادات » و « البغدادى » و « الزيّات » و « الجوهرى » مثلا ؟ وهل يحتاج القارىء بعد سماعه هذه الألقاب إلى شىء آخر ؟

إن المودودى يشير إلى اعتراض المبشرين والمستشرقين على القرآن فى مسألة السامرى واتهامهم إياه بالخلط فى التاريخ (٦٤) . يقصد قولهم إن « السامرى » نسبة إلى « السامرة » ، التى لم يكن لها وجود إلاَّ بعد ذلك بقرون ، فكيف يمكن أن يكون معاصراً لموسى وهارون ؟ (٦٥)

ويؤكد المودودى رحمه الله أن « الياء » من « السامرى » تدل على أنه لايمكن أن يكون هذا اسمه ، لأن ذلك الحرف فى اللغة العربية إنما يشير إلى أمّة الشخص أو قبيلته أو بلده . كذلك فإن « أل » فى كلمة « السامرى» تدل

على أنه ليس إلا فرداً من طائفة كبيرة من الأشخاص ينتمون إلى نفس الأمّة أو القبيلة أو البلد (٦٦) . وهذا الذى قاله المودودى إن صح فهو خاص باللغة العربية وأوضاع التسميات فيها ، بينما نحن بصدد اسم لشخص معاصر لموسى وهارون اختلفت فى جنسه الأقوال ولم يقل أى منها إنه كان عربيا ، فكيف نطبق على اسمه أوضاع لساننا وقواعده النحوية والصرفية ؟ وحتى فى اللغة العربية كثيرا ما نجد بين أسماء الأشخاص فى الجاهلية وصدر الإسلام أسماءً محلاّة بـ « أل » ، مثل الشنفرى » و « الحارث » و « النعمان » و « المنذر » و « العباس » و « الفضل » و « الزبير » و « العوام » و « المطّلب » و « السموأل » و « الزبّاء » و « الشفاء » ، « الرّبيّع » . وحتى فى « العهد القديم » نجد عدداً من الأسماء التى تبتدىء بألف ولام أو تنتهى بياء . ولعلَّ اسم « السامرى» كان مثلها ثم عرَّبه القرآن على هذا النحو جاعلاً الألف واللام للتعريف ومشدداً الياء التى فى آخره . ومن هذه الأسماء « نفتالِى » و « كرمِي » و « مرارِى » و « لاوِى » و « لِبْنِي » و « شمعى » و « أليشايع » و « ألعازر » و « ألقانة » (٦٧) . وهذه مجرد عيّنة صغيرة .

أما أن « السامرى » لايمكن أن يكون إلا نسبة إلى «السامرة » التى لم تُبْن إلا بعد ذلك بقرون ، فمن قال ذلك ؟ ولنفترض أنه منسوب إلى بلدٍ ما فهل هناك دليل على أنه لم يكن هناك مكان آخر يسمى « السامرة » قبل ذلك ؟ (٦٨) إن الناس من عهد عيسى عليه السلام حتى وقت قريب كانوا إذا قالوا : « فلان الناصرى » لم يفهموا إلا أنه من بلدة « الناصرة » ، ومن هنا سُمّى عيسى عليه السلام بـ « الناصرى » . ثم مرت الدهور وظهر فى العصر

الحديث فى مصر جمال عبدالناصر وأصبح كل من يتشيع له ولسياسته وفكره يسمى بـ « الناصرى » . فهل يصح أن يأتى مؤرخ بعد عدة قرون فينكر وجود عيسى عليه السلام بدعوى أن « الناصرى » لايمكن أن يكون إلا نسبة للرئيس « عبدالناصر » ، الذى لم يوجد إلا بعد مرور أكثر من تسعة عشر قرناً على وجود عيسى ؟

كذلك فهناك على الأقل موضعان فى العالم باسم « باريس » : أحدهما عاصمة فرنسا ، والثانى بلدة لاشأن لها فى صحراء مصر الغربية لولا أن د . أحمد أمين قد قُدّر له أن يعيش فيها زمنا ويذكرها فى كتابه « حياتى » لما كان لنا بها علم . ومن هذا أيضا اسم «Cairo» ، الذى تُسَمَّى به عدة مدن فى بلاد مختلفة من الأرض ، ومنها « كايرو» عاصمة مصر فى اللغة الإنجليزية . وتواريخ إنشاء هذه البلاد المتسمية باسم واحد مختلفة ، وقد يكون الفرق بين بعض هذه التواريخ قروناً .

وهذا إن سلّمنا أن « السامرى » نسبة إلى « السامرة » ، وهو مالا دليل عليه قاطع ، فقد تكون السين فى هذا الاسم مقلوبة عن الشين كما تفعل العربية مع الكلمات العبرية . والمودودى ينبه الأذهان إلى أنه قبل بروز « السامرة » إلى الوجود كان هناك من يسمّى « شامر » . ومن ذلك « شامر » صاحب الجبل الذى بنيت فوقه المدينة المسماة بـ « السامرة » (٦٩) . كما يقول إن بلاد « سومر » كانت معروفة منذ عهد إبراهيم ، أى قبل موسى بأزمان طويلة . فلماذا نستبعد أن يكون هناك أيضا من يطلق عليه « السامرى » ؟ (٧٠)

وأزيد أنا على ذلك أن الجبل الذى كان يملكه « شامر » هذا كان يدعى

« جبل السَّامرة » (٧١) ، فإذا كان لابدّ من نسبة « السامرى » إلى « السامرة » فلم لا يكون نسبة إلى ذلك الجبل مثلاً حيث كان يعيش أجداده ؟ إنّه فى السعودية مثلا كثيرا ماتقابلنا ، إلى جانب الأسماء السعودية الأصيلة ، أسماء أخرى ك « الدمنهورى » و « السرساوى » و « الغزّاوى » و « البخارى » و « السمرقندى » وغيرها مما يشير إلى المواطن الأصلية لأسلاف هذه الأسر الذين نزحوا منذ زمن إلى البلد الحرام واستقروا فيها وتناسلوا وأصبحت الأجيال الجديدة منهم جزءاً لايتجزأ من أهل البلاد ولم تعد تربطهم ببلاد أسلافهم أية صلة .

ولايستبعد عبدالله يوسف على صاحب ترجمة القرآن الشهيرة للغة الإنجليزية أن يكون السامرى أحد الإسرائيليين الذين تمصّروا باسم من الأسماء المصرية التى كان من بينها آنذاك اسم «Shemar » (بمعنى « الغريب ») (٧٢) ذلك الاسم الذى ظل معروفا عند العبريين إلى مابعد ذلك بقرون ، حيث نجد صاحب الجبل الذى أُنشئت فوقه مدينة « السامرة » يُدْعَى به (٧٣) . ثم يشير الكاتب إلى أن العبرية تعرف اسم «Shomer» (بمعنى « حارس أو خفير ») الذى يرتبط بالفعل العربى « سَمَر يَسْمُر » (أى ظل مستيقظا ، أو قضى شطرا من الليل يتحدث مع أهله أو صديق له مثلا) ، ومنه كلمة « سمير » ، وهو الذى يظل يقظان طول الليل . فلعل السامرى كان حارساً : وظيفةً أو مجرد لقب (٧٤) . بل إن عبدالله يوسف على يرى من المحتمل أيضا أن تكون تسمية « السامريين » ، وهم الفرقة اليهودية المنشقة عن سائر اليهود والتى تنظر إليهم باحتقار ، نسبة إلى ذلك السامرى صانع

العجل (٧٥) ، فيكون « السامرى » بذلك أصلاً يُنْسب إليه وليس فرعاً يُنْسَب إلى غيره .

ويورد لودفيج أولمان ، أحد مترجمى القرآن الكريم إلى الألمانية ، هو أيضاً القول الذى يفسّر كلمة « السامرى » بأنه « حارس أوْ راع » ، لكنه يذكر أن الذين يفسرونها هذا التفسير يقولون إنه هو هارون ، إذ كان هو الذى يرعى قومه أثناء غياب موسى عليه السلام ويحرس عقيدتهم . لكن من هم أولئك الذين يقولون إن المقصود بالسامرى هو هارون ؟ لاجواب . على أية حال ، هذا رأى لاقيمة له ، إذ إن القرآن قد برأ هارون تماما من هذا الاثم ، فلامعنى للقول بأنه يقصد بالسامرى هارون عليه السلام . إن هذا عبثٌ لايلتفت إليه . كذلك قد أورد أولمان رأى من قالوا إن « السامرى » كان ساحراً سامريا (٧٦) .

ويقول محمد الطاهر بن عاشور إن « السامرى » نسبة إلى أمة من سكان فلسطين فى جهة نابلس كانوا يسكنون تلك البلاد قبل مصيرها بيد بنى إسرائيل ثم امتزجوا بهم واتبعوا شريعة موسى عليه السلام مع تخالف فى طريقتهم عن طريقة اليهود ، وليس نسبةً إلى مدينة « السامرة » التى بنيت بعد موسى بقرون (سنة ٩٢٥ قبل الميلاد) . كما يجوّز أيضا أن يكون الاسم منسوبا إلى قرية مصرية فى ذلك الزمان (٧٧) ، أو لاتكون الياء فى آخره ياء نسب ، بل كياء « على » و « كرسى » فيكون اسماً أصليا ، أو منقولاً من العبرية والألف واللام فى أوله زائدة (٧٨) .

وقد أرجع بعض الباحثين المسلمين المعاصرين انتكاسة بنى إسرائيل فى عبادة العجل إلى تأثرهم بما كان يحيط بهم فى البيئة المصرية من هذه العبادة .

ومن هؤلاء عبدالله يوسف على (٧٩) ، ومحمد أحمد العدوى (٨٠)، ود. محمد محمود حجازى (٨١) ، ود. محمد الطيب النجار (٨٢) ، وأحمد بهجت (٨٣).

وكان المفسرون القدماء قد قالوا ، ضمن ما قالوا عن السامرى، إنه كان من قوم يعبدون البقر فوقع بأرض مصر فدخل فى دين بنى إسرائيل بظاهره وفى قلبه مافيه من عبادة البقر (٨٤) .

ولعل هذا القول من المفسرين القدماء هو الذى أوحى لمحمد حميد الله (الباحث الإسلامى الشهير ومترجم القرآن إلى اللغة الفرنسية) بأن يتساءل : ألا يمكن أن يكون هذا السامرى من أصل هندى ؟ ذلك أنه يرى أن هناك عدةً من الملامح فى قصته تومىء إلى هذا : فأولاً ، قوله « لامساس » يذكرنا بطائفة المنبوذين فى الهند . وثانياً ، عبادته للعجل تذكرنا بالبقرة المقدسة عند اليهود . وثالثا ، فإن اسمه قريب من اسم «Zamarin» الذى أطلقه البرتغاليون على السامريين حكام كليكتا . وفوق ذلك ، يسوق حميد الله بعض الدلائل على وجود صلات جد قديمة بين الهند ومصر، التى ظهر فيها السامرىّ (٨٥).

ومن المفسرين القدماء من قال إن السامرى من أهل كرمان ، فهو إذن فارسى ، أو من قرية قرب الموصل ، فهو إذن من بلاد مابين النهرين (٨٦).

نخلص من كل ذلك إلى أن اعتراض المبشرين والمستشرقين الذين اتهموا القرآن بالخلط فى التاريخ ، زعماً منهم أن « السامرى » لايمكن أن يكون إلا نسبةً إلى مدينة « السامرة » التى لم تظهر فى الوجود إلاَّ بعد زمن موسى بقرون، هو اعتراضٌ تحكمى لامعنى له .